المحاضرة رقم07:فتح ورشـات الصناعات التقليدية في النسيج المعماري العتيق.

1-مفهوم الصناعات التـقليدية.

2-نماذج عن الصناعات التقليدية المنتشرة في الحواضر العتيقة.

3-آليات تجسيد الصناعة التقليدية في المدن العتيقة.

4-دور الصناعات التقليدية في استغلال الممتلكات الثقافية.

تمهيد:

تميزت المدن العتيقة على اختلاف مواقعها الجغرافية بميزات اجتماعية ومعمارية خاصة،ولم يتوقف ذلك عند هذا الحد،بل شمل أيضاً مجال الصناعات،فقد عرفت هذه الأخيرة تلاحماً وثيقاً مع المستوى العمراني الذي كان سائداً،إذ كانت كلها تتم بطريقة يدوية وأحياناً اعتماداً على بعض الأدوات البسيطة،وهو ما جعلها هي الأخرى أنموذجا حضاريا يعكس عبقرية الأسلاف.

1-مفهوم الصناعات التـقليدية:

تحدَّث عبد الرحمن بن خلدون عن الصنائع عامةً في مقدمة مؤلَفه رابطاً تقدُّمها وسبب وجوده بالعمران الحضري،وقد عبَّر عن ذلك بقوله:"...وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق...وأما العمران البدوي فلا يحتاج من الصنائع إلاَّ البسيط..."،قبل أن نمر إلى تعريف الصناعات التقليدية اصطلاحاً،من الأجدر التعريف بالصناعة لغة،لقد أشتقت هذه الكلمة من الفعل صنع يصنع،وذكر في أحد قواميس اللغة العربية اصطنع الرجل خاتماً،أي طلب صناعة خاتماً له،واستصنع الشيء أي دعا إلى صنعه،والصُنع هو الرزق،ويقال رجل صَنَعٌ وامرأة صنَّاعٌ إذا كان لهما صنعة يعملانها بأيديهما ويكسبان بها

نُصادف عند حديثنا عن الصناعات التقليدية مصطلحين آخرين،هما الصناعات اليدوية والصناعات الحرفية،تلتقي كلها في جانب واحد يتمثل أساساً في تعبيرهم عن شيء عتيق ضارب جذوره في التاريخ،لكن من وجهة أخرى قدَّمت مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية CNUCED تعريفاً ميزت فيه الصناعة اليدوية عن التقليدية جاء فيه أن الصناعات المنتجة باليد على كل

الوحدات المنتجة بمساعدة أدوات أو وسائل بسيطة وكل المعدات المستعملة من طرف الحرفي،والتي تحتوي في جزئها الأكبر على عمل اليد أو بمساعدة الرجل،وحسب التصنيف الدولي للمهن الصادر سنة 1988 يصنّف الحرفي في المجموعة السابعة من المهن،وذُكر فيه أن تسمية الحرفي تطلق على الأشخاص الذين يمارسون أعمالهم باليد أو بمساعدة أدوات يدوية أو ميكانيكية أو غيرها التي تساعد على تقليص الجهد البدني أو الوقت اللاَّزم للقيام بمهام معينة أو للوصول إلى منتجات ذات جودة عالية،وعموماً تعرَّف أنها كل صناعة توارثتها الأجيال الحالية عن الأجيال السابقة،وهي أحد أهم الجوانب الحضارية التي رافقت عمران المدن العتيقة،وهي تعتمد في إنجازها على المواد المحلية واليد،ما جعلها تكتسي طابع ومظهر فني يوحي بالأصالة،وتبعاً لما تمَّ ذكره من تعريفات يتضح أن الاستثمار في هذا المجال الحيوي سيثمِّن ويسهِّل استغلال المجموعات الحضرية العتيقة،لما لها من لمسة عتيقة تضفي على العملية السياحية قدراً وافراً من الاحساس بعبق الماضي،الأمر الذي سيعطي دفعاً قوياً للسياحة الأثرية من جهة،ومن جهة أخرى سيثمن الممتلكات الثقافية.

2-نماذج عن الصناعات التقليدية التي كانت موجودة في الحواضر العتيقة:

رافقت الصناعة التقليدية حياة الأفراد في المدن العتيقة،وكانت أهم نشاطاتهم مثلها في ذلك مثل الزراعة والبناء،وعليه جسَّدت هي الأخرى أحد المظاهر الحضارية العتيقة،ونذكر في هذا المجال ما عرفته مدينة ندرومة العتيقة من حرف،حيث أظهر الإحصاء المنجز في أواخر القرن التاسع عشر ميلادي بالتحديد سنة 1867 أنه وُجد آنذاك 148 عامل في النسيج و17ورشة لصناعة الفخار،وهناك بعض الصناعات التي كان اليهود يمارسونها بالمدينة كصناعة الحلي التي كان يمتهنها 06صنَّاع يهود،وصناعة الأسلحة التي امتهنها صانعان،وصناعة البلغة التي اشتغل فيها 09 صنَّاع،وكانت تباع الصناعات اليدوية في السوق الأسبوعي الذي كان يقام كل يوم خميس،ماعدا الحبوب والصوف واللحم التي كانت تباع في ساحة التربيعة داخل النسيج المعماري للمدينة بمحاذاة الجامع مع الكبير،لقد أكسب هذا النشاط التجاري المدينة مكانة مرموقة بين البوادي المحيطة بها وجعلها قبلة الجهة الشرقية من إقليم ترارة والغزوات ومغنية وجبالة وحتى مدينة وجدة المغربية.

ونورد من بين الصناعات التقليدية الرائجة في المدن العتيقة عامة مايلي:

-صناعة الفخار:الفخار كلمة مشتقة من اسم لاتيني بـ Potun،وتعني آنية للشرب،أما عند الإغريق فكانت تسمى بـ Keramos،ومعناها قرون الحيوانات،وهي تعتبر من أقدم الفنون التطبيقية التي عرفها الإنسان،وهو يعد من الوثائق المادية التي تشهد ابتكاراً كبيراً،فصناعة الفخار من إحدى السِّمات الحضارية في العصر الحجري الحديث،يُجمع عدد من الباحثين أنه اهتدى إليه بعد اكتشافه للزراعة،وهو بذلك من أقدم المصنوعات اليدوية التي استخدمها الإنسان منذ ما قبل التاريخ،وقد عرف مع توالي السنين تقدماً ملحوظاً في ملمحه وزخرفته،وشهدت ورشات صناعته وجوداً مكثفاً في الحواضر الإسلامية بالمشرق والمغرب،فمثلاً في مدينة تلمسان العتيقة كان يوجد بها درب يسمى بدرب الفخارين،ومن بين الأدوات المصنوعة منه:المقلة(لطهي الخبز)، القدرة(للحليب) ،المجمر(يستعمل كموقد لتسخين الطعام والماء)...إلخ.

وقد اكتسب الفخار أهمية كبيرة في الدراسات الأثرية لأنه يساعد في الوصول إلى جانبين معرفيين الأول يتعلق بالتأريخ،أما الجانب الثاني فيتمثل في معرفة المستوى الفني والمعيشي.

-الصناعة الجلدية:تعتبر من الصناعات التي عرفها الإنسان منذ ما قبل التاريخ،فقد اهتدى الإنسان لصناعتها عند اصطياده للحيوانات وتربيتها،حيث كان يستغل جلودها ليتخذ منها لباساً له،وقد كانت البلغة النعل التقليدي في حواضر البحر الأبيض،أشتهرت مدينة فاس بصناعتها،كانت تصنع من الجلد المصبوغ واتسمت بمقدمتها الحادة،كانت تسمى عند النساء باسم الشربيل،ولم تخرج بقية المدن العتيقة مثل تلمسان وندرومة عن هذه القاعدة،فقد انتشرت في دروب نسيجهم العتيق ورشات لصناعة البلغة،إضافة لذلك انتشرت ورشات لتجليد الكتب،وصنع أغماد السيوف،وأخرى لصناعة القربة التي كانت تستعمل لتخزين الحليب والماء الشروب في حالة السفر.

-صناعة الجلابة:أشتهرت الحواضر الإسلامية العتيقة بالخياطة،ولعل أبرزها كان خياطة الجلابة،كانت تصنع من الصوف الطبيعي،ولم تكن تعرض في الأسواق إلاَّ بعد مرورها على البراشمي الذي يضفي عليها صبغة جمالية من تدقيق وتزيين،لأن الجلابة ترمز إلى قمة الشرف والرجولة والجاه قديماً.

-صناعة المنسوجات: كانت منسوجات الإسلامية ذات شهرة فائقة في أرجاء العالم إلى الحد الذي كانت تسمى مدينة بأكملها نسبة لها،مثل مدينة ندرومة التي عرفت باسم مدينة النساجين، كما كانت موضع التقدير ومضرب الأمثال في دقتها وروعتها وجمالها،ويُعرَّف النسيج أنه عبارة عن جسم مسطح يتكون من مجموعة من خيوط طولية يطلق عليها اسم السدى تتقاطع مع خيوط عرضية تعرف باسم"اللحمة" تقاطعاً منتظماً،ويختلف المنسوج في مظهره ونوعه تبعاً لاختلاف تقاطع الخيوط وتركيبها،فمنذ الأزمنة البعيدة والإنسان يجرب مئات الأنواع من الشعيرات الطبيعية ليرى مدى صلاحيتها لصناعة النسيج،فهناك الشعيرات النباتية التي تأخذ من جذوع النبات،وشعيرات أخرى حيوانية مثل الصرف والشعر وشعيرات تفرزها الحشرات مثل الحرير الطبيعي الذي تفرزه دودة القز،وكانت تسمى أيضا بصناعة الدْرَاز في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط،وقد ارتبط عملها بالنول أو ما يسمى بالمرمَّى الكبيرة التي تعتبر الأداة الأساسية في عمل الدراز.

3-آليات تجسيد الصناعة التقليدية في المدن العتيقة:

حتى نتمكن من إعادة الوظيفة التجارية التقليدية التي تماشت في تيار واحد مع المفهوم العمراني الإسلامي العتيق،لابد من فتح ورشات داخل النسيج العمراني،وعليه يمكن الاعتماد على ثلاثة أشكال من الورشات هي كالآتي:

-ورشة الحرفي الفردي:تم تعريفه لأول مرة في المادة 03 من القانون رقم12/82 كل شخص طبيعي مسجل في سجل الصناعة التقليدية والحرف ويمارس نشاطاً تقليديًا من الأنشطة السابقة الذكر،يتبث تأهيلاً ويتوّلى بنفسه مباشرة تنفيذ العمل وإدارة نشاطه وتسييره،وتحمل مسؤوليته وتتكون هذه الورشة من الحرفي المعلم والصانع،ويمكن الاستعانة بمساعدين من المسكن.

-تعاونية الصناعة التقليدية والحرف:هي عبارة عن شركة مدنية يكونها أشخاص يحملون صفة الحرفي،ولها رأس مال،ويكون هدفها إنجاز كل العمليات وأداء جميع الخدمات التي من شأنها المساهمة في تنمية الصناعة التقليدية.

-مقاولة الصناعات التقليدية والحرف:تهتم هذه المقاولة بأحد أنواع الصناعات التقليدية،وهي تقوم بتشغيل عدد غير محدَّد من الحرفيين.

لا يتوقف بعث نشاط الصناعات التقليدية عند هذا الحد،بل يتطلب عدداً من الخطوات الأخرى تتمثل في مايلي:

-تقديم مجموعة من الامتيازات للحرفيين على رأسها توفير المادة الخام للصناعة،كالصوف، الجلد، الطين والخشب،وتخفيض قيمة الضرائب عل الحرفيين.

-السعي لخلق تكوينات خاصة بالصناعات الحرفية بالمعاهد والتكوين المهني لتكوين مهنيين في التخصص بمستوى رفيع.

-تقديم قروض بنكية مصغرة في مجال الصناعات الحرفية،مع تخفيض نسبة الفوائد وتسهيل الإجراءات الإدارية للراغبين في ذلك.

-القيام بالدعاية لمنتجات الصناعات التقليدية،وذلك عن طريق إصدار مجلات خاصة أو برامج تلفزيونية.

4-دور الصناعات التقليدية في استغلال الممتلكات الثقافية:

نظراً للعلاقة الوطيدة بين الممتلكات الثقافية وبقية بصمات الأسلاف في شتّى المجالات التي من بينها الصناعات التقليدية،كان لانعاش هذه الأخيرة والعناية بها إحياء لجانب مهم من القيم المتأصلة في المدن العتيقة،حيث تعمل هذه الأخيرة على حفظ وصيانة إرث هذه الأمة،ومن ثم حفظ الهوية الثقافية التي أصبحت في الآونة الأخيرة مهدَّدة بعدد من العوامل الخارجية المنحصرة في العولمة الثقافية،ضف إلى ذلك يمكن من خلالها احداث تواصل بين أفراد المجتمع لالتقائهم في منتوج موحد،جميع هذه المعطيات جعل الحرف اليدوية رسائل ناطقة عن المستوى المعيشي الذي كان سائداً،مثلها مثل المعالم والمواقع واللقى الأثرية.

ناهيك عن هذا الجانب،يشكل إعادة بعثها داخل المدن العتيقة دفعاً قوياً للعملية السياحية،فالسائح يبحث دائماً عن شيء مميز يصطحبه إلى بلده الأصلي يبقى كذكرى عن السياحة التي قام بها في مكان ما،ومن ثمَّ الارتقاء بالسياحة الأثرية التي تعتبر تجسيداً مباشراً لاستغلال الممتلكات الثقافية.